أثر التفكيك في التأسيس لخطاب ما بعد الكولونيالية – قراءة في مشروع إدوارد سعيد–

أ/ رويدي عدلان
جامعة جيجل

تمهيد:

شكل خطاب التفكيك منذ ظهوره في منتصف الستينات إلى غاية اليوم جدلا نقديا وفكريا بين الدارسين والمفكرين والفلاسفة بحكم ما خلفه من آراء ومفاهيم زعزعت الكثير من الثوابت والمسلمات التي استمرت لقرون عديدة، وهدمت جملة من الأفكار الي تتعلق بالمنظومة الفكرية والفلسفية للحضارة الغربية، وفي مقدمتها ميتافيزيقا الحضور والمركزية الأوروبية، وإن بقي مفهوم التفكيك غامضا عند الكثير من الدارسين، بحكم منهجه وآليات عمله، والمرامي والأهداف التي كان يود الوصول إليها، إلاّ أن توغله في شتى حقول المعرفة وخصوصا العلوم الاجتماعية والانسانية كان شديد السرعة والفعالية، فاستقبلته مختلف الخطابات إمّا بالإعجاب وإمّا بالنقد، واستطاع أن يقتحم الوسط النقدي والنظرية الأدبية بسرعة فائقة ويستحوذ على اهتمامات النقاد، خصوصا وأنه يمثل ثورة على النظرية الأدبية التقليدية، وتأسيسا لفكر ما بعد حداثي ترك مفعوله بارزا على مستوى هذه الساحة، من خلال ما خلّفه من طروحات وأفكار.
فكان لمفعول التفكيك تأثير كبير في خلخلة العديد من المفاهيم التقليدية السائدة على مستوى الساحة النقدية العالمية، حيث ساهم في بروز العديد من الخطابات الهامشية المضادة لخطاب المركز، ومن بين هذه الخطابات النقدية خطاب ما بعد الكولونيالية الذي يعد من إفرازات النظرية النقدية المعاصرة.

ويعد إدوارد سعيد كقامة نقدية ضمن الساحة النقدية العربية والعالمية، من مؤسسي هذا النوع من الخطابات، والذي أسس لمشروع فكري ونقدي متميز، على الرغم من الانتقادات التي تعرض لها، بل وزادته قوة ومناعة ومحل إشادة من قبل كبار النقاد والمفكرين، وهو مشروع أفصح فيه صاحبه في كتبه المختلفة والمتعددة عن مختلف آرائه ومواقفه اتجاه ما يحدث في العالم من تجاوزات ومظالم في حق الشعوب المستضعفة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية وردود الفعل الدولية اتجاهها، وقد فتح مشروعه هذا على أكثر من صعيد، من أجل الكشف عما تخلفه مختلف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في صنع الخطابات المختلفة، التي لا يمكن أن تكون

بريئة بأي حال من الأحوال، وقد حمل هذا المشروع بين دفتيه مختلف المثقفين الذين ينتمون إلى ثقافات هامشية، وعاشوا ظروفا متشابهة يجتمع فيها المنفى والألم والقهر والحقد من الاستعمار وما خلفه من تخلف وتهميش للشعوب المستضعفة وثقافاتها الأصلية، والكل يعترف لإدوارد سعيد بالتأسيس لهذا الخطاب النقدي المتمرد، الذي يحاول خلخلة المركز وتفكيكه وتفتيته، وتشريح الواقع الذي تعيشه المجتمعات المتخلفة والضعيفة، وانطلاقا من دراساته التي تتعلق بالشرق، فمن خلال كتابه الاستشراق الى نشر عام 1978، حاول إدوارد سعيد تفكيك الخطاب الاستشراقي لكشف القناع عن المرامي الحقيقية التي يعمل الغرب على تكريسها، والصورة النمطية التي أخذت على الشرق، على اعتبار أنه مجتمع متخلف وغير حضاري على عكس المجتمع الغربي الذي هو رمز للحضارة والتفوق، مما ساهم في بروز هوة كبيرة بين المجتمع الغربي والمجتمعات الأخرى خصوصا على المستوى الثقافي، وكتاب إدوارد سعيد هذا هو كتاب عن الغرب وإشكالاته الفكرية والخلخلة الجوهرية في ثقافته والمفارقات الأساسية التي تقوم فيه، حيث يعاين سعيد الآخر في إطار القوة والفوقية والسلطة وهي طريقة خاضعة لا للفكر النقدي الذي يمارسه الغرب في فهم ذاته لفكر آخر مصدره الإنشاء الاستشراقي المتشكل والمتصلب والذي تأسس في إطار معطيات ومنطلقات غير المنطلقات الأولى، وهكذا استطاع هذا الناقد أن يكتشف ألاعيب الغرب وتمثيلاتهم المختلفة في قهر المجتمعات والثقافات الهامشية، في مقابل تكريس ثقافة المركز، هذه المركزية جعلت مثقفي الهامش يثورون على هذا الوضع محاولين قلب الموازين والدعوة إلى تشكيل خطاب نقدي مضاد، يكون الهدف من إعادة موازين القوى، بحثا عن أدب إنساني وثقافة إنسانية تستوي فيها جميع الشعوب.

ومن هذا المنطلق ظهر خطاب ما بعد الكولونيالية، والذي أسس له نقاد ومثقفين وفي مقدمتهم إدوارد سعيد نفسه، الذي اعتمد على عدّة مفاهيمية ونقدية تقوم على تفكيكية جاك دريدا من جهة، وحفريات ميشال فوكو من جهة أخرى ليحاول تقديم خطاب نقدي مضاد لخطاب المركز، فينشأ عن ذلك صراع بين خطابين متضادين خطاب المركز من جهة وخطاب الهامش من جهة أخرى، وهذه المبادرة تعتبر جريئة وجادة من مفكر كإدوارد سعيد، الذي يعمل على تبليغ رسالة الفكر، التي تقوم أصلا على نفي الأوضاع وتطويرها نحو الأحسن، ورفض النظام السائد الذي يحكم المجتمع الدولي والثقافة الكونية، وهذ المقال يروم إلى بيان أثر خطاب التفكيك

في ظهور الخطاب ما بعد الكولونيالي، من خلال أحد مؤسسيه الكبار وهو إدوارد سعيد، وسوف نحاول الإجابة حول هذه الإشكالية المعقدة فيما تبقى من هذه المقال.

1- في مفهوم التفكيك:

مصطلح التفكيك من المصطلحات التي يشوبها الغموض والضبابية، فهو زئبقي المفهوم، مراوغ ومخاذع ومضلل في دلالته، يصعب على أي دارس أو ناقد فهمه، سواء من حيث منهجه أو من حيث مراميه وأهدافه، بل وهو ملتبس حتى في لغته الأصلية وعند مؤسسيه الفعليين، وفي مقدمتهم جاك دريدا، من هذا المنطلق نقر بصعوبة تحديد مفهوم دقيق وجامع للتفكيك،« فليس التفكيك منهجا »[1]، كما أنه « ليس نظرية عن الأدب»[2]، وليس فلسفة أو جملة من الأطروحات، ولكنه انفتاح عن سؤال الفلسفة نفسها، وهو استراتيجية في القراءة، تقوم على قراءة الخطابات الفلسفية والأدبية والنقدية،« وفي كل هذه الفروع المعرفية يضطلع التفكيك ضمنيا بإثارة مشروع يفضي إلى قلقلة أسس هذه الفروع قلقلة جذرية»[3]، وذلك من خلال التموضع داخل الخطابات وتقويضها من داخلها، فتعمل على خلخلة أبنيتها المعتمدة على الثنائيات الضدية، مثل الصوت والصمت، الخير والشر، الدال والمدلول، اللسان والكتابة...إلخ، وهذا يكون عبر اللغة وعبر الثقافة الغربية، وعبر الأشياء التي تحدد انتماءنا إلى هذا التاريخ والفلسفة، « إن القراءة التفكيكية على حدّ تعبير جيرار جنجومبر تستهدف تفجير النص انطلاقا من مبدأ اللاتماسك، وجعله يلعب ضدّ ذاته»[4]، وبهذا الشكل لن يتمكن القارئ من السيطرة عليه، لأن العلامات اللغوية التي يشتغل عليها النص موضع تشويش بين المعنى المرجعي والمعنى المجازي المقابل له، لذلك« تسعى التفكيكية إلى تحرير النص الحي المفتوح من قيد القراءة الأحادية المغلقة القاتلة»[5]، نحو أرجاء واسعة من التأويل والقراءة التي تمنحه تعددية دلالية، ولكنه « استراتيجية وعملية حذرة وغير آمنة في التعامل مع النصوص»[6]، فالممارسة التفكيكية تتأسس بوصفها طريقة للنظر والمعاينة إلى الخطاب، « ولكنها استراتيجية وعملية حذرة وغير آمنة في التعامل مع النصوص» وهي تقف إلى الجانب الآخر من الطروحات التاريخية والسوسيولوجية والسيكولوجية والبنيوية والوصفية، وهدفها تحرير شغل المخيلة ، وافتضاض آفاق بكر أمام عملية التفكير والإبداع فالتفكيك بهذا المفهوم «يمثل استراتيجية تعتمد آلية الكشف والبحث عن البنى الخفية أو المطمورة

عبر فضاء فكري جديد ومغاير ومن خلال رؤية فكرية تهدف إلى خلخلة أو تصديع بنية الخطاب بحثا عن أنظمته الدلالية وأنساقه المتعالقة وصولا إلى القراءة المنتجة»[7]، إن هذه التفكيك هو محاولة لإنشاء استراتيجية عامة تتفادى المقابلات التي ميزت الفكر الغربي، بدءا من أفلاطون ووصولا إلى دي سوسير، لتقيم في الأفق المغلق لهذه المقابلات« استراتيجية بديلة "للقراءة والكتابة"، أو "في مقاربة النصوص"»[8]، وهذه الاستراتيجية من هذه الزاوية ليست حيادية، وإنما هي ثورية « تحاول قلب التضاد الكلاسيكي وإزاحة النظام»[9]، وخلخلة وزعزعة مختلف الطروحات والمسلمات، فهو« مغامرة ترمي إلى البحث والتنقيب حيث سيتم من خلالها مساءلة مجموعة من ومفاهيم ودلائل أضفى عليها الفلاسفة على مرّ العصور صبغة القداسة»[10]، ومن ثم تقديم قراءة معينة للنصوص، وهذا النظام قائم « على فكرة أن أي نص يمتلك نظاما لغويا أساسيا بالنسبة لبنيته الخاصة، التي تمتلك وحدة عضوية، أو نواة ذات مدلول قابل للشرح»[11]، ومن هنا يبدو التفكيك طريقة خاصة في نقد الثنائيات الميتافيزيقية، « وإحداث قطيعة مع الإرث الميتافيزيقي لفسح المجال لفلسفة الاختلاف التي تفعّل من طاقة الكتابة»[12]، وذلك بأن يقيم في أفقها المنغلق، وجعل الكتابة تحتل موضع الكلام، والظاهر يحتل مكان الباطن والدال مكان المدلول...إلخ، بمعنى آخر جعل المركزي هامشا والهامشي مركزا، والاشتغال داخل النسق النصي لهذه الاستراتيجية، وهذه الأفكار التي جاء بها دريدا لقيت اهتماما كبيرا من قبل منظري خطاب ما بعد الاستعمارية، محاولين من خلال ذلك تفكيك الخطاب الاستعماري، وإعادة الاعتبار لمختلف الثقافات الهامشية ، والتخوم والأطراف المنفية من قبل المركز، لذلك وجد هؤلاء المثقفين المنفيين في التفكيك منهجا في كشف القناع عن الأهداف المضمرة داخل الخطابات المركزية.

2-في مفهوم خطاب ما بعد الكولونيالية:

خطاب ما بعد الكولونيالية هو تسمية لنظرية في الدراسات الثقافية والنقد الأدبي أفرزتها معطيات تاريخية وسياسية خاصة، ويمثل نوعا « من التحليل ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى وأن مرحلة من الهيمنة تسمى أحيانا المرحلة الامبريالية أو الكولونيالية كما عرّبها بعضهم قد خلت وخلقت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معين»[13]، هذا التحليل يتجه نحو تفكيك الخطاب الاستعماري، وإعادة النظر في العلاقات الثقافية بين الشعوب، وتشكيل سرد مغاير يعيد النظر في تاريخ آداب الدول العظمى المهيمنة، ويكشف عن المآزق المعاصرة التي

خلفها الاستعمار داخل الشعوب المستضعفة والثقافات الهامشية، ويعد نقدا لمختلف أشكال الهيمنة، لكنه « يتقاطع مع العديد من المناهج وحقول البحث الثقافية الغربية المعاصرة، وذلك بوصفه هو الآخر واقعا تحت مظلة الفكر ما بعد الحداثي وما بعد البنيوي، يتضح ذلك من التوجهات المختلفة التي قدم منها باحثون آخرون إلى حقل الخطاب الاستعماري»[14]، وهو يحاول إزاحة فكرة المركزية والصراع الثقافي والفكري المضاد للمركز، و يهدف إلى تشكيل قراءة جديدة للثقافة الغربية من منظور الهوامش والأطراف لا من منظور المركز نفسه، لذلك تجتمع في كتابات المأسّسين له مجموعة من القواسم المشتركة التي « في مجملها آداب أعادت كتابة تاريخ الحضارة الاستعمارية نفسها من وجهة نظر المستعمرين »[15]، وهذا الخطاب حسب هؤلاء الدارسين يبدو مقصودا لأنه يحمل في طياته بذور الاستعمار والهيمنة، كما أن هذا النوع من الكتابة يتبنى مشروعا يعمل على إعادة الاعتبار لحقوق لشعوب الأطراف والتخوم الضعيفة وثقافاتها في سبيل إرساء نوع من العدالة بين الهامش والمركز، من أجل تكريس ثقافة إنسانية تستوي فيها مختلف الثقافات والشعوب، لذلك يشتغل هذا الأدب على تصوير حالات البؤس والشقاء والمعاناة التي تعاني منها الشعوب الضعيفة، وهذا من مخلفات الاستعمار نفسه، فشكل هذا الخطاب الجديد خطابا مضادا لخطاب المركز، ليتشكل ما يعرف بصراع الخطابات، أو صراع الهامش والمركز في الخطابات النقدية، فالنص « سلاح إيديولوجي في مجتمعات سلطوية فكرية وسياسية وكل فريق يرى نفسه في النص ويسقط عليه أمنياته ويرى فيه دفاعا عن مصالح وهجوما على خصومه، وهكذا يكون النص خادما لفئة سياسية واجتماعية معينة تملك وسائل التسلط والاستبداد ما يكفي لهزيمة الآخر»[16] ، وتجلى هذا في أقصى درجات بروزه مع منظري خطاب ما بعد الكولونيالية، الذين عاشوا الظروف نفسها، على اعتبار أن بلدانهم عانت من الاستعمار ومخلفاته، وكذلك المنفى الذي يجمع مختلف هؤلاء المثقفين، لذلك شكلوا صوتا واحدا وسردا مضادا، يتبنى الدفاع عن حقوق الشعوب الضعيفة، كشعوب الشرق الأقصى والزنوج في إيفريقيا، وحقوق المرأة في دول العالم الثالث، من أجل تكريس مبدأ المساواة بين الثقافات وإعادة تشكيل العلاقات بينها من منطلق التكافؤ والعدالة، وهذه الأفكار تبناها مجموعة من المفكرين والكتاب، والبداية كانت أولا مع « فرانتز فانون الذي نشر عام 1961 كتابا بعنوان"المعذبون في الأرض" تضمن مقالته الشهيرة "حول الثقافة الوطنية" التي أرست نظرة نقدية صارمة نحو الاستعمار

الأوروبي في تعاطف شديد مع الدول المستعمرة»[17]، ليتبعه فيما بعد مجموعة من المفكرين ينتمون إلى دول عربية وآسياوية وإفريقية، اشتغلوا على تحليل هذا الخطاب، ويمثل إدوارد سعيد أحد تلك المشاريع الفكرية والنقدية، التي أرست تحليلا دقيقا ومسحا شاملا لهذا الخطاب وذلك عبر ما يمارسه من وتمثيلات هدفها الأول الهيمنة.

3-التفكيك ودوره في التأسيس لخطاب ما بعد الكولونيالية:

تشكل خطاب ما بعد الاستعمار ضمن معطيات تاريخية واجتماعية وسياسية وفكرية خاصة، هيأت لفئة من الأصوات المثقفة المهمشة بأن تعلن صراحة رفضها للوضع الذي تعيشه الشعوب والثقافات الضعيفة، خاصة وأنها تعيش الظروف نفسها كالمنفى والاستعمار، من هذا المنطلق وعبر خلفيات فلسفية وفكرية ظهر هذا الخطاب المتمرد والرافض للوضع القائم على الهيمنة والاستغلال من قبل الدول الغربية، حيث أسس له مثقفين استفادوا من التيارات الفكرية والفلسفية المعاصرة، خصوصا فلسفة الاختلاف أو فلسفة ما بعد الحداثة، التي يعد التفكيك أحد أهم أقطابها الفاعلة، فهو« يمارس قلبا للتعارض الكلاسيكي وإزاحة شاملة للنسق عير إيماءة مزدوجة وعلم مزدوج وكتابة مزدوجة»[18]، والتي أثرت على مختلف الخطابات الأخرى في العلوم الاجتماعية والانسانية والنقد الأدبي، وخصوصا خطاب ما بعد الاستعمارية، الذي استفاد كثيرا من مقولات التفكيك وطبقها على جملة من النصوص المختلفة، مثلما استفاد أيضا من حفريات ميشال فوكو ودراساته التي تتعلق بالمهمشين، من المجانين والسجناء والشواد والمنفيين في الأطراف والتخوم المختلفة، وإذا عدنا إلى المنظرين الأوائل لهذا الخطاب فسوف نلحظ جليا تأثير التفكيك في فكر هؤلاء وفي مقدمتهم إدوارد سعيد، الذي اشتغل على هذا الخطاب واستقبله في البداية بوابل من النقود المختلفة، التي لم تتجاوز النظرة الكلاسيكية، خصوصا مقولة جاك دريدا المشهورة "أن لا وجود خارج النص"، حيث خطّأ سعيد دريدا واعتبره تائها في العدم، ولكن سعيد لم يدرك جيدا أن هذا العدم أو العمى هو الذي قاد جاك دريدا نحو أنوار جديدة، ونحو بصيرة تستجلي حقائق التأويل لتحفر في باطن النصوص المختلفة بحثا عن الأنساق المضمرة بين تلافيف اللغة وتراكيبها، وقد هيأت الظروف في الولايات المتحدة الأمريكية لإدوارد سعيد تلقي خطاب التفكيك، الذي لقي رواجا كبيرا في تلك الفترة مع مجموعة من النقاد أمثال بول ديمان وهيليس ميلر ودلثاي وجوناثان كولر وهارولد بلوم ، وقد تغلغل في الأوساط النقدية ليتلقاه المثقفين من

العالم الثالث فوجدوا فيه ما يتناسب وطموحهم المعرفي، ومن هؤلاء إدوارد سعيد الذي اشتغل عليه، واعتمده كمنهج في قراءة الخطابات الأدبية والفنية، من خلال تفكيك مختلف البنيات الداخلية للنصوص، واكتشاف ما تخفيه من أشكال الهيمنة والسيطرة على الثقافات الهامشية، لذلك راح يفكك خطاب الاستشراق ويوظفه « كخطاب سلطوي غربي تنامى حول الشرق واكتسب مؤسساته وقواعده ومتخصصيه»[19]، ليشرح تواطئ السلطة والثقافة في تهميش ثقافات الأطراف، ومن ثم تفكيك المركز وجعل الهامش بديلا له وإضفاء الطابع الانساني على مختلف الثقافات .

4-فعل التفكيك بين جاك دريدا وغياتاري سبيفاك:

تجلّى تأثر الخطاب ما بعد الاستعماري بالتفكيك في أقصى درجاته خصوصا في خطاب النقد النسوي، الذي جاء موازيا للخطاب الأول، وهنا أخص بالذكر الناقدات النسويات المثقفات اللواتي ينتمين إلى الثقافات الهامشية ويدرّسن في الجامعات الكبرى في أوروبا وأمريكا، وأهم هؤلاء الناقدات نجد الباحثة والناقدة الهندية جياتاري سبيفاك، التي اشتغلت على دراسة كتابات جاك دريدا، وقد ترجمت له كتاب "علم الكتابة"، « وناقشت التفكيك عند دريدا في علاقته بأعمال هيجل ونيتشه وهوسرل وهيدجر في مقدمتها في "علم أنساق الكتابة"»[20]، كما اعتمدت منهج التفكيك في قراءة النصوص، وانتقدت الحركة النسوية الغربية من خلال تركيزها على عالم البيض من الطبقة المتوسطة من الجنسين، وتهتم بدور الطبقة الاجتماعية، من أجل إعادة الاعتبار للهوامش او الاتباع على حدّ تعبيرها، وعبر منهجية تحليلية نسوية تفكيكية ماركسية ثقافية حاولت سبيفاك في مقالها المشهور بعنوان" هل يمكن للتابع أن يتحدث؟"، أن تميط اللثام عمّا تتعرض له النساء الهنديات والشرقيات من قهر ذكوري واستعمار واستغلال مهين لذلك كانت مهمة النقد النسوي حسب سبيفاك هو إقصاء القراءة الأبوية ورؤية الرجل وصوته، وإظهار صوت المرأة، وهذا الصمت الذي تعانيه المرأة مقصود الهدف منه إسكات مجموعة التصورات الاخلاقية والاجتماعية الراسخة، لذلك عملت سبيفاك على أن يكون ما هو تفكيكي وما هو سياسي جنب إلى جنب، وهنا يقتفي النقد النسوي ونقد ما بعد الاستعمار أثر نظرية التفكيك وذلك من أجل إعادة النظر في فهم جملة من المسلمات، وزعزعة الكثير منها، فإذا كان المهيمن الرجل قد احتكر عملية التشفير الرمزية واستعبد فيها المهيمن عليه أو الخاضع المرأة منذ

زمن طويل، فإن التفكيكية تأتي لتضع الخاضع أو المهيمن عليه في قلب العملية وتجعل منه مركزا، وهذا ما ينقض مجموع البنى الرمزية القائمة على رؤية المستبد والمهيمن للعالم.

وهذا الذي يشكل حسب سبيفاك صراعا بين الطرفين من أجل تحقيق التفوق الدلالي باستمرار، وينتهي بانتصار الذكر داخل مجتمع حريص على ذلك، وهنا يبرز دور التفكيك في سعيه إلى إعادة صياغة النظام الترميزي على أسس جديدة، حيث يتم فيها تحرير المرأة أو الآخر الماثل لا المناقض للسلطة الأبوية، بهذا الشكل تسترجع الأصوات المهمشة حقها، والأكيد أن جياتاري سبيفاك استفادت كثيرا من درس التفكيك خصوصا تلك الثنائيات الضدية التي أقرها دريدا وفي مقدمتها ثنائية الكتابة والصمت، وقراءة المكتوب، أي فترة الصمت التي يحتويها النص، التي وهكذا استفاد خطاب ما بعد الكولونيالية من مقولات التفكيك واشتغل عليها، وربما إداشتغلت عليها سبيفاك من أجل إعلاء صوت المهمشين، فالتفكيكية حسب سبيفاك مفيدة لتحليل وقياس مثل فترات الصمت هذه، فلكي يتكلم التابع تقترح سبيفاك أنه « من الضروري أن ننسى ما تعلمناه كي نفسح المجال للصامتين من التحدث»[21]، وبهذا تتم عملية التدمير الإيجابي للمركز، وإعادة العلاقات الطبيعية بين الثقافات المختلفة، وإدوارد سعيد هو من أهم النقاد والمفكرين الذين استوعبوا درس التفكيك واعتمدوا مقولاته وهذا ما نوضحه في باقي المقال.

5-إدوارد سعيد من خطاب التفكيك إلى تفكيك الخطاب الاستعماري:

تشكل المشروع الفكري لإدوارد سعيد عبر جملة من الترسبات المعرفية، التي شكلت فكرا مختلفا يتميز عن باقي الخطابات الفكرية الأخرى، ويتمرد على أعرافها في النقد والقراءة، فكر يفتح النص أمام الممارسة التأويلية والتعددية القرائية عبر أفق لانهائي من المعاني والدلالات المتوالدة، لذلك نجد حضورا كبيرا للمنهج التفكيكي الذي أسس له دريدا في المشروع الفكري لإدوارد سعيد، خصوصا مع التشابه الكبير في الجهاز الاصطلاحي للرجلان، وتقارب المنهج بينهما والأهداف الواحدة المرجوة من هذه القراءة، التي تروم إلى تفكيك خطاب المركز وتفتيته وتدميره، من أجل إعادة الاعتبار إلى مختلف المعاني الهامشية، وجعلها تطفو على سطح الخطاب، بما تحمله من أنساق سياسية مضمرة، وهذا ما كان يهدف إليه إدوارد سعيد، الذي اشترط في العملية النقدية توافر ثلاث شروط مهمة وهي العالم والنص والناقد، وألف كتابا خاصا منحه هذا

العنوان، يشرح فيه مشروعه في نقد الخطاب الاستعماري، مستفيدا في ذلك من مقولات التفكيك التي وضعها دريدا، ويمكن أن نختصر هذا التأثر فيمايلي:

5-1-النقد الدنيوي عند إدوارد سعيد ومفهوم الاختلاف عند دريدا:

عبر مشروعه النقدي يحاول سعيد في قرائته الثقافية أن يعيد النقد إلى العالم، وذلك من أجل اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، وهذا يمر عبر قراءة تأويلية تتفق تماما مع مفهوم الاختلاف عند دريدا الذي استفاد منه كثيرا في مقاربة النصوص المختلفة وخصوصا الروايات والموسيقى.

ومفهوم الاختلاف عند دريدا يعني به « الإزاحة التي تصبح بواسطتها اللغة أو الشفرة أو أي نظام مرجعي عام ذي ميزة تاريخية عبارة عن بنية من الاختلافات»[22]، هذا الاختلاف يتم عبر لعبة من الآثار والاختلافات والإحالات المتبادلة، فتنشأ من خلال ذلك فضاء ومسافة جمالية وانزياحات وفواصل، حتى داخل عناصر اللغة المتكلمة أو الكلام،« وهذا يعني أن ثمة في اللغة "اختلافا بالضرورة أي اختلاف وإرجاء وإزاحة»[23]، فعبر الحفر في طبقات النص وأبنيته المختلفة، وربط النص بشروطه المكانية والزمانية يتم الكشف عن شبكة من العلاقات السياسية والاجتماعية المعقدة، لذلك« فالنص هو حادثة ثقافية لابد من ربطه بمظاهر الدنيا السياسية والاجتماعية والثقافية، فالنصية في رأي سعيد غير مقنعة بحال من الأحوال»[24]، لذلك يجب الربط بين النصوص والوقائع الوجودية للحياة البشرية والسياسية والمجتمعات والأحداث، وربط النص بسياقاته التاريخية، لأن « العلاقة بين النص والعالم ليست مجرد إشكالية مثيرة في النظرية النصية بل هي أولا وأخيرا الإشكالية التي تؤسس للنظرية النصية»[25]، لذلك يفرض سعيد على الناقد العودة إلى الأبنية التاريخية للإمكانيات التي سمحت للنص أن يوجد ويتشكل داخل معمار خاص، والأدب ليس له مهمة جمالية تقوم على الامتاع فقط، وإنما تنخرط فيه المهمة الجمالية والتاريخية والسياسية، لتشكل ما يعرف بدنيوية النص وبهذا الشكل يعود النقد إلى العالم ليكشف عن منهج شمولي يشتغل على مقولات التفكيك، وعلى هذا الأساس يقدم لنا سعيد مصطلحات خاصة يحاول التفريق بينها ومنها مصطلح النسب الذي يقصد به كل ما يصف مكونات النص من الداخل من جماليات وأنساق دلالية، فهو لا يتعدى التحليل الداخلي، كما نجده يوظف مصطلح الانتساب الذي يقصد به منح النص مجال حركته أي مجموعة النصوص المحيطة به، والسياقات التاريخية التي تتعلق بالمؤلف، واللحظة التاريخية التي يتم فيها استعادة النص، لذلك يعيد

تشكيل العلاقات بين النصوص والعالم، من أجل تخليص النص من عزلته وفتحه على أرجاء مختلفة من القراءة والتأويل، يقول سعيد« النصوص دنيوية وهي أحداث إلى حدّ ما، وهي فوق كل هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية، وقسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو فيها التنكر لذلك كله»[26]، لذلك ركز سعيد على كشف العلاقة بين البنية والحدث والتضاد الحاصل بين السيطرة والامبريالية بنظمها وأنساقها الثقافية المختلفة، لذلك تحوّل النص في الخطاب النقدي السعيدي من صفة الواحدية إلى التعددية، وأصبح « وثيقة تعكس القيم الإيديولوجية والسياسية السائدة من ناحية، وتتخذ نقطة انطلاق لإعادة تصور تلك القيم، وإعادة بنائها في ظل صراع طبقي ثقافي لا يتوقف من ناحية أخرى»[27]. وهكذا يصبح النص عبارة عن علامة ثقافية هي جزء من سياق ثقافي وسياسي أنتجها، وما يريد سعيد الوصول إليه هو الكشف عن الانظمة الداخلية لهذه العلامة في إطار مناهج التحليل المعرفية وتأويل النصوص وخلفياتها التاريخية والتحليل المؤسساتي، لذلك فهو يضع النص« داخل سياقه السياسي من ناحية وداخل سياق القارئ او الناقد من ناحية أخرى»[28]، وهذا ما يمنحه تعددية وتوالدا دلاليا، وهذا ما يتفق تماما مع مصطلح الاختلاف، الذي يفتح النص أمام عوالم عديدة للتأويل والتفكير الحر.

5-2-ثنائية الكتابة والصمت بين دريدا وإدوارد سعيد:

وعلى غرار ما تناولناه سابقا، مع الباحثة والناقدة الهندية غياتاري سبيفاك وتأثرها بخطاب التفكيك ومقولاته المختلفة والمتعددة خصوصا تلك الثنائيات الضدية التي ترتكز عليها القراءة التفكيكية، ولربما كان لثنائية الكتابة والصمت الأثر الكبير على مؤسسي خطاب ما بعد الاستعمار، فدريدا يرى أن« التمركز حول الصوت هو التقليد الأكثر امتدادا وترسخا في تاريخ الفلسفة»[29]، لذلك عمل على ردّ الاعتبار للكتابة، عبر صياغة علمية تقوم على مفهوم الاختلاف « الذي سيمكن الكتابة من استعادة قوتها وتأهيلها لتتقدم أمام عتبة علمية»[30]، وقد سارت على نهجه جياتاري سبيفاك، إضافة إلى إدوارد سعيد الذي بدوره تأثر بهذه الثنائية نظرا لكونها أكثر تعلقا بالشعوب المستضعفة والثقافات الهامشية وأصوات الأطراف والتخوم، لذلك اشتغل سعيد بقراءة ما هو مكتوب، وهذا من أجل كشف فترات الصمت التي يحتويها النص، ولا تتم هذه العملية إلاّ عبر القراءة التفكيكية التي تحلل هذه الفترات، وتسمح للأصوات المهمشة

والتابعة بمصطلح سبيفاك بأن تتكلم هي الأخرى وترفع صوتها عاليا في وجه الهيمنة والسيطرة التي فرضها الاستعمار والمركز، وبهذه الطريقة تعاد العلاقات الطبيعية بين الشعوب والثقافات المختلفة بدون تمييز، وتسود النزعة الانسانية بين الشعوب والثقافات المختلفة وهذا هو الهدف الأسمى حسب سعيد، لذلك يعيد مراجعة النقاش الثقافي وذلك عبر« انتقاد المركزية الأوروبية، ذلك الانتقاد الذي مكّن القراء من رؤية البأس النسبي الذي تنطوي عليه سياسات الهوية والسخف الذي ينطوي عليه إثبات نفاء الجوهر الأساسي»[31]، وليست ثنائية الكتابة والصمت آخر ما استفاد منها الخطاب ما بعد الكولونيالي عامة والسعيدي خاصة، وإنما هناك مقولة أعظم منها وهي مقولة تفكيك المركز وإزاحته أو التمركز العقلي والصوتي.

5-3-كتاب الاستشراق وتفكيك خطاب المركز:

من بين الأفكار الدريدية(نسبة لجاك دريدا) التي تأثر بها إدوارد سعيد هي فكرة تفكيك المركز، وإعادة الاعتبار للأصوات المهمشة، وقد تبلورت المعالم الاولى للمشروع الثقافي لإدوارد سعيد مع كتابه الاستشراق، الذي حاول فيه الربط بين الاستشراق كملف ساخن وكواقع علمي ومعرفي من جهة، والامبريالية كأحد الأساليب التي اعتمدتها الدول الغربية في قهر الشعوب المستضعفة من جهة أخرى، وهذا من خلال تفكيك الثقافة الغربية في علاقتها بالسلطة، واتحاد الفعل الثقافي مع السياسي، الذي أدى إلى انتزاع المبادرات من الأقلية، و تحرير العلاقات بين الغرب والشرق من تلك الصورة النمطية والمختزلة والمجزئة، التي أنتجها الاستشراق عن الشرق والمسلمين، وبقيت راسخة في الآوعي الجمعي للشعوب المستعمرة.

وإدوارد سعيد من خلال قيامه بعملية مسح جينالوجي للثقافة الغربية، بالاستناد إلى ترسانة من الأدوات النقدية المتميزة في الكتابة، يروم إلى إعادة النظر في العلاقات غير متكافئة بين الشرق والغرب وبين الخطابات، وتعرية الخطاب الغربي، من أجل كشف تحيزات العرق والجنس وآليات القمع والاستغلال، وتخييلات الاستعلاء، وتمثلات التابع في خطاب المتبوع، وهذا الأمر جاء عن طريق تواطئ القوة والمعرفة معا، لذلك راح سعيد يسائل ويفكك مختلف الكتابات والخطابات الغربية كالفيلولوجيا والأنثروبولوجيا والمسرح والأدب خصوصا أدب الرحلة والرواية، وكل هذه الكتابات تظهر النظرة الدونية للشرق، وتميط اللثام على الوجه الحقيقي للاستشراق كخطاب سلطوي غير بريء، وتفكيك هذه الخطابات حسب سعيد ليس من أجل الصراع بين الشرق

والغرب، لأن« استعداد الناقد لمساءلة الخطاب النقدي ذاته مع انفتاحه على النصوص والكتابات المهمشة وإحضارها إلى المتن الثقافي، وكسر الحدود القومية العرقية لتحقيق خطاب عالمي إنساني»[32] و من أجل إقرار العدالة بين مختلف الآداب العالمية ومنح الفرصة للثقافات الاخرى التي لا تقل شأنا عن المركز، لذلك لابد من الاقرار « بأن عهد التفسير الواحد والنظرية الثابتة والخطاب الجامع قد ولّى، وأن المركز لم يملك الهيمنة الفكرية كما في السابق على الأقل من الناحية المعنوية، وأن للأطراف أيضا خطابات وتصورات حول طبيعة هذه العلاقة الاستعمارية فيها الكثير من العمق والمعرفة الدقيقة بالذات والآخر» [33] .

ومن هنا اتجهت الكتابة عنده إلى تفكيك أفكار المركز وتمشيطها، وإنتاج فكر مواز يجادل في أصالته، ويحكم عليه بالتزييف، نظرا لما يحمله من ألغام أعاقت عقول الدول المستضعفة، وحرمتها من التفكير السليم، وهذه الممارسات الخطابية الغربية التي مارست أشكالا عديدة من التمثيل، والتي تولّدت منها صورة نمطية حول الشرق، أنتجت في جوّ من القوة والسلطة، والمعرفة المحتكمة إليهما، وتحاول التخلص من الممارسات المعقدة التي أنتجها التخييل والتمثيل الذي يحتكم لمنطق السيطرة، واكتشاف مختلف تلك الأشكال التمثيلية يقدم لنا صورة واضحة حول أشكال الهيمنة، بالاستناد إلى الفكر الاستشراقي، كفكر أنتج كمشروع ضمن سياقات سياسية واجتماعية وعقائدية محددة، تعرض مركزية الغرب وتفوق العرق السامي، وهذا من خلال تصوير الهامش على أنه مقصى ومهمش « وإعادة كتابة التاريخ الثقافي الأوروبي بصورة تحقق له الوحدة والاستمرارية من جهة وتجعل منه التاريخ العام للفكر الانساني بأجمعه من جهة أخرى»[34]، عبر طرق التمثيل والانشاء« إنشاء يدّعي لنفسه مقام الحقيقة، ويحجب بشكل مطلق حقيقة كونه تمثيلا لا أكثر، حقيقة كونه يجسد وعي الذات للآخر أكثر ممّا يجسد الآخر، إنشاء ذا طاقة مولدة للذات تفعل ضمن شروط نابعة من الذات المعاينة بالدرجة الأولى، ثم من الآخر موضوع المعرفة بدرجة ثانية أو ثالثة ثم إنه اكتناه للطغيان الذي يمارسه الإنشاء»[35] وهذا يؤسس لعوالم مزيفة عن طريق استثمار المعرفة، من أجل بسط السيطرة والقوة والامبريالية، وهكذا يمكن القول أن الاستشراق مؤسسة تمارس سلطتها المعرفية تأكيدا لمركزية الغرب وهامشية ما عداه وتغذت هذه الرؤية الشوفينية وهذا الوضع برؤى سياسية، ممّا خلق تفاضلا بين عالمين، ومن هنا كان الاستشراق خطابا إيديولوجيا يقصي الحضارات الشرقية ويأتي لخدمة فكرة المركز، ويتحول إلى مؤسسة

إمبريالية، ويرى إدوارد سعيد « أن الاستشراق كان نتاجا لقوى نشاطات سياسية معينة، فهو مذهب سياسي مارسه الغرب القوي على الشرق الضعيف»[36]، الذي أخذ صورة نمطية مزيفة، « والشرق الذي يتجلى في الاستشراق إذن هو نظام من التمثيلات مؤطر بطاقم من القوى التي قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربية والوعي الغربي»[37]، لذلك يجب إعادة تأسيس العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب والسيادة بينهما على نحو يسمح لتلك الثقافات الهامشية بأن تبرز هي الأخرى، مادامت أنها لا تقل أهمية عن ثقافة المركز، ومجمل القول أن كتاب الاستشراق يمثل مشروع إدوارد سعيد في اكتناه المعرفة والسلطة والطغيان الذي يمارسه الإنشاء عبر مختلف أشكال التمثيل، التي خلقت صورة نمطية حول الشرق.

5-4-كتاب تعقيبات على الاستشراق والحفر في الثقافات المهمشة في الشرق الأقصى:

نظرا لما أخذ حول كتاب الاستشراق الأول من انتقاذات ومآخذ وهنات، خصوصا في تركيز سعيد على الشرق وحصره في الشرق الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، مقصيا الشرق الأقصى وحضاراته، وما يحمله من ثقافات وقيم حضارية، حاول إدوارد سعيد تدارك هذا النقص في كتابه "تعقيبات على الاستشراق"، حاول من خلاله التطرق إلى الثقافات الشرقية كالحضارة الصينية واليابانية، لكنه لم يسلم كذلك من النقد خصوصا من النقاد والمستشرقين الغربيين وفي مقدمتهم أبو المستشرقين المعاصرين برنارد لويس، وذلك من خلال إقصائه الثقافات الشرقية الأخرى كالثقافة الفارسية والتركية، لذلك كان يعمل جاهدا من أجل تدارك هذه النقائص، من أجل المساواة بين مختلف الثقافات، كما أشار كذلك إلى ثقافة الزنوج في إفريقيا، فقد تأثر بكتابات فرانس فانون خصوصا المعذبون في الأرض، ونوّه لفضل هذا الرجل في كشف نوايا الدول المستعمرة في الهيمنة، كما نوه في كثير من كتبه إلى بعض الكتابات المغاربية، خصوص رواية "نجمة" لكاتب ياسن، بالإضافة إلى أعمال روائية أخرى، فقد ركّز على دراسة الجنس الروائي أكثر منه على باقي الأجناس الأدبية الأخرى، بالنسبة للروايات الغربية،على اعتبار أن هذا الجنس له القدرة على استيعاب مختلف المرامي والإيديولوجيات السابقة، ويمكن أن يكشف لنا بسهولة على الأهداف المضمرة التي يبتغي الاستعمار الوصول إليها، وبالضبط في فترات زمنية محددة، لذلك فهذه الأعمال كانت مقصودة من قبل هؤلاء المبدعين، الذين يروجون لمجموعة من الأفكار تكون في خدمة الاستعمار .

5-5-كتاب الثقافة والإمبريالية/ تواطؤ المعرفة والسلطة في إقصاء الهامش:

كتاب الثقافة والإمبريالية هو كتاب مكمّل لكتاب الاستشراق يواصل فيه إدوارد سعيد تشريح خطاب الاستشراق مفكّكا مختلف الألغام التي يخفيها هذا الخطاب الإيديولوجي الغير بريء، الذي يحمل بين جنبيه جملة من الأهداف الاستراتيجية التي يهدف الغرب إلى الوصول إليها، محاولا تحليل « التواطؤ بين نشأة الإمبراطورية الاستعمارية وتطورها وتوسعها، ونشأة الرواية الحديثة في الغرب واكتمال خصائصها الفنية»[38]، وهو في عمل إدوارد سعيد يمثل ببساطة المادة التاريخية والحيز المميز من ثقافة الغرب التي يتناولها بالتحليل النقدي، وهو كتاب عن الغرب وإشكالاته الفكرية، والخلخلة الجوهرية في ثقافته، والمفارقات الضدية التي تقوم فيه، لذلك يحاول سعيد في كتابه هذا « تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة، وأداء الخطاب الاستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخييلية خدمت السياسات الاستعمارية، وشكلت جزءا لا يتجزأ من مناخات صعود الإمبريالية»[39]، التي تمتلك آليات وأساليب عديدة يمتد نفوذها إلى مختلف المجالات الثقافية،« ذلك أن الامبريالية ليست مجرد استغلال بقوة العمل الرخيصة والمواد الخام والأسواق السهلة فحسب وإنما اجتثاث اللغات والعادات من جذورها»[40] من أجل فرض هيمنتها، وهذه الهيمنة هي « توزيع مكامن القوة والتأثير بطريقة دقيقة فهي عملية يصعب علينا اكتشافها»[41]، فمعاينة الآخر تتم في إطار من القوة الفوقية والسلطة، وهي طريقة خاضعة لا للفكر النقدي الذي يمارسه الغرب في فهم ذاته، بل لفكر آخر مصدره الإنشاء الاستشراقي المتشكل المصلب، والذي تأسس في إطار معطيات ومنطلقات أخرى غير المنطلقات الأولى، لذلك « ينبغي النظر إلى الاستشراق كحالة تاريخية تابعة للاستعمار»[42]

ثم يحاول سعيد دراسة ظاهرة تكريس الغربي نفسه لدراسة الشرق ودوافع ذلك، وما قامت به الانثروبولوجيا الثقافية، التي لم تكن تستهدف التثقيف والحوار الثقافي أو المثاقفة، بقدر ما كانت تستهدف تكريس مركزية الثقافة الغربية، وتكريس النموذج الغربي كنموذج مثال ووحيد للتقدم الحضاري، وعلى الثقافات الهامشية تقليده والسير على منواله،« فمازال مفهوم المثاقفة مفهوما أورو أمريكيا يعمل لصالح طرف واحد هو المركزية الأورو أمريكية الأدبية والفكرية[43]، وبقيت التخوم المنفية مجرّد تابع فقط، فهذه المثاقفة هي قهرية أو إجبارية، أي تجبر الأطراف على اختيار النموذج قصريا، ويواصل إدوارد سعيد الحفر في الرواية الغربية، على اعتبار أنها تمثل « أكثر

الأشكال الأدبية الجمالية التي تعبر لا عن التوسعات الاستعمارية فحسب إنما ارتبطت بها»[44]، محاولا تشريح الأنساق الثقافية المضمرة التي تخفيها هذه الخطابات من الداخل، وهي مقصودة في حد ذاتها، فالرواية حسبه« تقدم تمثيلا يوافق الفكر الشائع للحملات الاستطانية فيما وراء البحار حيث يتم تهديم نسق ثقافي وزرع نسق آخر محله وهذه الانساق محملة بدلالات ثقافية تفضي بالملون لأن يكون تابعا والأبيض متبوعا»[45]، لذلك يستمر سعيد في تحليل مجموعة من الروايات الغربية المختلفة لروائيين غربيين كبار أمثال كبلينغ وأوستن وجوزيف كونارد وكامو وديكنز، من أجل اكتشاف ذلك التواطؤ الموجود بين الرواية والاستعمار في اختزال الأطراف، « فالرواية الغربية لم تنج من الضغوطات المعلنة أو المضمرة في إضفاء شرعية على الوجود الاستعماري في المستعمرات النائية من خلال اختزالها للإفريقي أو الآسياوي أو الأمريكي الاتيني أو العربي إلى نموذج للخمول»[46]، وهذه الصورة استمرت ومازالت حتى الآن، حيث تمكنت من خلق نوعا من الاختلاف والتمايز بين مختلف الأجناس، ومن خلال الحفر في بعض الأعمال الروائية العالمية، خصوصا الإنجليزية منها، اكتشف سعيد أن« الرواية البريطانية هي الأكثر اهتماما بحقائق الامبراطورية»[47]، وقد أثبت هذا من خلال دراسته لأعمال الروائي المحبوب لديه وهو جوزيف كونارد البولوني الأصل والإنجليزي الجنسية، خصوصا روايته "قلب الظلام"، ففي تحليله لطرائق الحكي وأشكاله في هذه الرواية اكتشف سعيد أن « الشكل السردي يشتق من منظومتين في عالم ما بعد الاستعمار الذي تلا عالمه : الأولى تتيح للمشروع الامبريالي القديم المجال الكامل ليمسرح نفسه بالصورة التقليدية أي ليصوغ العالم كما رأته الامبريالية.

أمّا المنظومة الثانية فهي منظومة محلية مرتبطة بزمان ومكان محددين لا هي صحيحة دونما شرط ولا هي مؤكدة دونما قيد»[48]، وفي ختام بحثه « ينتهي إدوارد سعيد إلى أن ثمة تزامنا حكم الظاهرتين الرواية والاستعمار وإنهما تبادلا المنافع»[49]، فالثقافة ومن ضمنها الأعمال السردية ممثلة خاصة في الرواية تستثمر من قبل الغرب في خدمة الأهداف الامبريالية، فسارت جنبا إلى جنب مع الاستعمار وتفاعلت معه وذلك من أجل تشكيل خارطة العالم وفقا للتصور الغربي، لكن في مقابل ذلك « ولّدت تيار المقاومة في المستعمرات السابقة التي كانت صامتة»[50]،هذه المقاومة المضادة التي جاءت كرد فعل منطقي لما فرضته الامبريالية، من أجل ردّ الاعتبار لسكان المستعمرات.

5-6-كتاب صور المثقف/ المنفى الفكري للمغتربين والهامشيين:

يطرح إدوارد سعيد في هذا الكتاب مفهوم المثقف والأشكال المختلفة للمثقفين، خصوصا الهامشيين، ثم يثير مسألة مهمة تتعلق بطرق مواجهة المثقف لمسألة القوة والسلطة، وفي هذا الصدد يقدم لنا العديد من النماذج من المثقفين الهامشيين، فينطلق من أفكار الفيلسوف و المفكر الماركسي والناقد الإيطالي أنطونيو غرامشي أحد الأقطاب المؤسسين لخطاب ما بعد الكولونيالية، وتقسيمه لانماط المثقفين ، وكمثقف هامشي تكبد عناء السلطة السياسية أنذاك في عصر موسيليني، لكنه يمثل نموذجا للمثقف الذي وقف في وجه السلطة رغم ما تعرض له من تهديد، وهو يعد من المثقفين المستقلين.

والمثقف المستقل حسب إدوارد سعيد « يشعر بالعجز في مواجهة شبكة الهيئات الاجتماعية القوية في وسائل الإعلام والحكومة والشركات الكبيرة وفي المقابل فإن عدم الإنتماء يعد امتداد إلى هذه القوى يعني في طرق كثيرة عدم القدرة على إحداث تغيير مباشر»[51]، لذلك على المثقف أن يكون واعيا بدوره غير خاضع للشبكة العنكبوتية للسلطة، ويؤدي وظيفته كمفكر« ولكي يكون الانسان مهتما ومفكرا بالمجتمع عليه أن يكون مؤهلا لطرح الأسئلة الأخلاقية حتى في صميم النشاط الأكثر مهنية وتقنية»[52]، وبهذه الطريقة تكون له القدرة على طرح واختيار موقفه بحرية تامة، من غير السقوط في فخ السلطة، فيمتلك ثقافة المقاومة في مواجهتها،ثم يطرح سعيد قضية المنفى في الفصل الخاص بالمنفى الفكري، أين يفصل في هذه المسألة، ويربطها بالمثقف، فالمنفى حسبه « هو أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة وفي أزمنة ما قبل العصر الحديث»[53]، وهو لم يكن يعني فقط أعواما يعيشها الانسان تائها بدون هدف بعيدا عن الأسرة، ولكن المنفى الحقيقي حسب سعيد أن تكون منبوذا اجتماعيا وأخلاقيا، وقد تحول هذا المنفى من عقاب حاد للأفراد إلى عقاب شرس لمجموعات وشعوب بأسرها، وهذا المنفى الأخطر.

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب يفصّل إدوارد سعيد في دور المثقف ورسالته، حيث عنونه ب "قول الحق في وجه السلطة"، ويشرح فيه طرق المواجهة بين المثقف الهامشي والسلطة، وصوت المثقف في المجتمع، فعلى المثقف أن لا يكون أذاة طيعة في يد السلطة، بل من حقه أن ينتقدها ويوجهها، وتكون لديه حرية في قول ما يشاء، بعيدا عن كل الإيديولوجيات والمذهبيات، فالفكر ليس وجها للسلطة، دينية كانت أم سياسية، فسلطان الفكر يستمده الفكر من روحه بواسطة

التحليل المباشر للواقع والتعاطي معه، وهو ميزة بشرية وجهد إنساني وراء كل ما صنعه الانسان، وخاص به في مجال النظر أو في مجال العمل، ويقوم على الحرية والابداع والتعدد والتنوع، فعلى المثقف أن يحمل هذا النوع من الفكر، ويقول كلمة الحق في وجه السلطة والقوة،« إن صوت المثقف وحيد لكنه يسمع رنانا والسبب الوحيد للرنين هو أن هذا الصوت يربط نفسه دون قيود أو بواقع حركة ما وطموحات شعب ما، وبالسعي المشترك من أجل مثال أعلى مشترك»[54]، هكذا يكون صوت المثقف حرّا من كل القيود والأغلال التي تفرضها سلطة ما، والبحث دوما عمّا يفيد المجتمع، وهذا أمر معقول ومطلب مشروع، يقول سعيد « إن قول الحق في وجه السلطة ليس مثالية مفرطة في التفاؤل، إنه تأمل دقيق في الخيارات المتاحة واختيار البديل الصالح»[55]، الذي يمكن أن ينتقل بالمجتمع نحو الأسمى والأحسن ويمارس لعبة التغيير وكسر هيمنة المركز وكسر قيوده واستبداده بالمهمشين، وهذا هو الدور المنوط بالمثقف كصوت فاعل ومنفعل فيه.

خاتمة:

في ختام هذا المقال يمكننا الخروج بجملة من النتائج، تمثل زبدة هذا البحث الذي تناولنا فيه مفهوم وأثر التفكيك في ظهور الخطاب ما بعد الكولونيالية عند الأعلام المؤسسين له، وممثلا في إدوارد سعيد كأحد النقاد المؤسسين لهذا الخطاب، الذي تشكل في سياق التفاعل مع مختلف الفتوحات المعرفية الغربية المعاصرة، وخصوصا تيارات ما بعد الحداثة، هذا الخطاب الذي هو أصلا خطاب مضاد لخطاب المركز، يحاول تمشيطه من أجل الكشف عن مختلف الألغام الدلالية التي يضمرها هذا الخطاب الغير بريء، كاشفا الوجه الحقيقي للخطاب الإستشراقي والإرهاب الذي يمارسه في حق الثقافات الهامشية، التي تمثل ضحايا هذا الإرهاب الثقافي الذي يوظف أسلحة فتاكة من أجل القضاء على الثقافات الشرقية والضعيفة وتهميشها، وعبر استراتيجيات دقيقة، وبشكل أعمق من حيث المحتوى والمنهج والنقد، انصبّ بحث إدوارد سعيد حول تجليات الامبريالية وأشكالها ودلالتها من حيث تمركزها حول معنى القوة، ومحو الآخر من النص، وإنتاج أشكال معرفية وتمثيلات نمطية عن الآخر، كما تطرق إلى مسألة الهوية والمقاومة، وهذه فقط بعض المفاهيم التي طرحها إدوارد سعيد، وحاول إثباتها من أجل إعادة الاعتبار لمختلف ثقافات الأطراف والتخوم، كثقافات لها الحق هي الأخرى في فرض منطقها، لتتشكل وفق ذلك ثقافة إنسانية تستوي فيها مختلف الثقافات، لا ليصبح العالم أحادي القطبية الثقافية التي تفرض نموذجا

واحدا يقتدى به كل الأطراف، وهذه الدراسة اتخذت من التفكيك كاستراتيجية في قراءة الخطابات الغربية وتقويضها، فكشفت عن الهوية السياسية لمختلف الخطابات المركزية ومراميها الخفية والمضمرة، وأثبتت التهم الموجهة لها عبر قرائن نصية، مستفيدة من الثنائيات الضدية التي صنعها الفكر الدريدي في تشكيل هذا الخطاب المتمرد الذي يصور مآزق الدولة المستعمرة في ظل النظام الدولي الجديد.

الهوامش:

1- جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، المغرب، 1988، ص61.

2- خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس: نظرية اللغة الأدبية، تر: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب،1992، ص147.

3- مجموعة من الكتاب: البنيوية والتفكيك مداخل نقدية، تر: حسام نايل، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص170.

4- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1،2007، ص175.

5- المرجع نفسه: ص174.

6- مجموعة من الباحثين: اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، منشورات الاختلاف، الجزائر- الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص 240.

7- بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، ص158.

8- جاك دريدا: الاستنطاق والتفكيك، مجلة الكرمل، ع17،1985، ص56.

9- وليام راي: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، 1987، ص161.

10- مجموعة من الباحثين: اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، ص240.

11- خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس: نظرية اللغة الأدبية، ص147.

12- مجموعة من الباحثين: اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، ص 247.

13- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 2002، ص158.

14-المرجع نفسه: ص159.

15-حسن حنفي: قراءة النص، مجلة البلاغة المقارنة، ع8، الجامعة الأمريكية، القاهرة، ربيع 1988، ص16-17.

16-رزان محمود إبراهيم: المؤثر الاستعماري في الكتابة الأدبية إيقاعات متعاكسة تفكيكية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة البترا الخاصة، الأردن، ص14.

17-ميجان الرويلي. سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص 159.

18-مجموعة من الكتاب: البنيوية والتفكيك مداخل نقدية، ص 147.

19-ميجان الرويلي. سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص 156.

20-مجموعة من الكتاب: البنيوية والتفكيك مداخل نقدية، ص173.

21-بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص 153.

22-جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، ص33.

23-إدوارد سعيد: العالم النص والناقد، تر: عبد الكريم محفوظ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص ص 8-9.

24-المرجع نفسه: ص23.

25-مجموعة من الكتاب: البنيوية والتفكيك مداخل نقدية، ص 118.

26-حفناوي بعلي: مدخل إلى النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف-الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1،2008، ص47.

27-المرجع نفسه والصفحة نفسها.

28-إدوارد سعيد: تأملات في المنفى، ص19.

29-مجموعة من الباحثين: اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، ص 247.

30-المرجع نفسه: ص 252.

31-إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص139.

32-كريم بجيت: بين الأدب والنقد والسياسة، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2007، ص53.

33-محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ص27.

34-إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1،1996، ص150.

35-إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة – السلطة – الانشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2،1984، ص149.

36-المرجع نفسه: ص.214

37-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة- تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة-، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، 2003. ص68. .

38-إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ص26.

39-عبد القادر الرباعي: تحوّلات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص25.

40-عز الدين المناصرة: النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005، ص243.

41-المرجع نفسه: ص17.

42-المرجع نفسه: ص.43

43-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة- تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة-، ص.68

44-المرجع نفسه: ص.69

45-المرجع نفسه: ص71.

46-المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

47-عز الدين المناصرة: علم التناص المقارن نحو منهج عنكبوتي تقابلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1،2006، ص293.

48-المرجع نفسه: ص292.

49-إدوارد سعيد: صور المثقف، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص57.

50-عز الدين المناصرة: علم التناص المقارن نحو منهج عنكبوتي تقابلي،ص292-293.

51-المرجع نفسه: ص 305.

52-المرجع نفسه: ص395.

53-إدوارد سعيد: صور المثقف، ص 105.

54-المرجع نفسه: ص105-106.

55- المرجع نفسه: ص 106.